أهمية التأصيل من القرآن الكريم

في الدعوة إلى اللّه تعالى وضرورتـــــه

مقدمه : د. علي بن محمّد عبد اللّه الطالب الأمين الشنقيطي

عضو هيئة التدريس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة

و أستاذ الدعوة والدراسات الإسلامية المشارك

وعميد كلية المجتمع بالمدينة المنورة

من ١٥٩ إلى ١٩٠

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، القائلِ على لسان رسوله الأمين: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١) والصلاةُ والسلام على إمام الدعاة ﷺ القائلِ في وصيته لمعاذ بن جبل ﷺ لما بعثه لليمن: ((إنك تقدم على قوم أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله ...))(٤) ورضي الله عن صحابته الكرام الذين قاموا بواجب الدعوة إلى الله وفَقِهوها ، ووضعوا كل شيء في مرتبته بالعدل ، فبلّغوا الرسالةَ وأدوا الأمانة ، ونصحوا الأمّة ، وقالوا للناس حسنًا أمابعد :

فالنصوص الشرعيّة هي الأصل في إدراك كيفية عبادة الله ، والدعوة إليه ، كما أنّها تحفظ الداعية من الابتداع والانحراف ، والمقصود في هذه الدراسة بيان الحاجة إلى معرفة أدلة الدعوة ومصادرها ، والتأكيد على مصادر التلقي والتأصيل ، حتى تبقى القاعدة الصلبة والمعروفة لكل داعية ؛ حتى لايحصل الحيد والانحراف ، وخاصة في ظل كثرة مصادر المعرفة ، وأوعية المعلومات ، وقنوات التأثير ، فالحاجة في ظلّ هذا المتغير ماسة للدعاة إلى الله ، في التأكيد على أسس الدين والدعوة وأصولهما ، والأدلة المعتبرة ، والمصادر الموثوقة .

وعلى رأس هذه الأدلة والأصول والمصادر القرآن الكريم ، كلام الله تعالى ، وصراطه المستقيم ، ودستوره القويم ، ورسالته الخالدة ، من قال به صدق ، ومن حكم

(١) سورة يوسف الآية (١٠٨)

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب لاتؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة برقم (١٤٥٨) ، (٤٥٠/١)

به عدل ، ومن عمل به هدي إلى صراط مستقيم ، فالواجب على الدّاعية إلى الله العناية به : قراءة وحفظاً وعلماً وتدبراً ، والوقوف عند أوامره ونواهيه ، والتزام توجيهاته ومنهجه في جميع الشؤون والأحوال ؛ فهو كتاب الدّعوة الأوّل ودستورها الأساسيّ ، وجميع مصادر الدّعوة الأخرى ترجع إليه ، والآيات القرآنية مليئة بالمبادئ والمناهج والتوجيهات والأساليب الدعوية ، بل في القرآن الكريم من الفقه الدعوي الشيء الكثير الذي لا يكاد يُحصر ، فهو كتاب هداية وإرشاد ، يهدي للتي هي أقوم ، قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ سورة الإسراء الآية (٩)

المبحث الأول :

في أهمية الدعوة والتأصيل لها :

المطلب الأول : مفهوم التأصيل عموما وأهميته وفوائده في الدعوة إلى الله تعالى :

المطلب الثاني : حاجة الدعوة والداعية للأدلة والمصادر الموثوقة حماية لها .

المبحث الثاني :

القرآن الكريم وأهميته في تأصيل الدعوة إلى الله :

المطلب الأول : تعريف القرآن ومكانته وكونه الأصل الأول للدعوة إلى الله

المطلب الثاني : أهمية التأصيل من القرآن الكريم للدعوة إلى الله وضرورته

المطلب الأول : في مفهوم التأصيل عموما وأهميته وفوائده في الدعوة إلى الله:

(أ) مفهوم التأصيل وأهميته :

التأصيل كلمة جذرها (أصل) : والهمزة والصاد واللام لها ، لها دلالات متنوعة في اللغة ، أظهرها وهو المراد هنا : أنّ الأصل بمعنى : أساس الشيء الذي يقوم عليه ، يُقال : أصَّل الشيء أي جعل له أصلا ثابتا يبنى عليه ، والأصل منشأ الشيء الذي يخرج أو ينبت منه ، يقال : استَأصَلَتِ الشجرة ، أي ثبت أصلها ، ويقال : استَأصَلَهُ أي قطعه من أصله والرأي الأصيل: ماله أصل ، ورجل أصيل : ثابت الرأي عاقل[١] .

ومن خلال هذا المعنى اللغوي فإنّ المقصود بالتأصيل في الدعوة إلى الله هو : أن يبني الداعية دعوته وينطلق فيها من خلال الأصول المعتبرة والنصوص الشرعية والأدلة المرعيّة ، ويبني آراءه وخطواته من خلالها للوصول إلى الفقه الدعوي الذي به يحقق الصواب والنجاح

ومن هنا فإنّ المصادر الشرعية هي أساس الدعوة وأصلها الذي تنطلق منه ، وتستند عليه ، أما أن ينطلق الداعية في دعوته ويندفع بدون مستند شرعي أو أصل معتبر ؛ فهذا مرفوض وهو ما أوقع كثير من الدعوات والدعاة في الانحراف وعدم التوفيق وهذا الوضع المرفوض سببه غياب التأصيل الشرعي في الميدان الدعوي أو التقصير فيه[٢] .

وأهمية التأصيل للداعية ، أنّه يمكّنه من إدراك حقيقة مايدعو إليه ؛ ليكون متخصصا ومؤهلا في دعوته ؛ لأنّ التخصص يجعل الشخص قادرا على إدراك جوانب تخصصه ، بصورة أوضح من غيره ، ونظرة المتخصص ليست كنظره غيره ، فهو ينظر

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس مادة (أصل) (١/١٠٩) ، ولسان العرب ، ابن منظور مادة (أصل) (١١/١٦) ، والقاموس المحيط مادة (أصل) ص (١٢٤٢) ، والمعجم الوسيط مادة (أصل) (١/٢٠)

(٢) وهنا تبرز ظاهرة ليّ أعناق النصوص الشرعية ، والفقه الأعوج ؛ الذي يظهر عند بعض من يتصدرون للدعوة ؛ ليبرروا ماقاموا به من أعمال ، ويفسروا تلك النصوص والأصول على هواهم لتوافق آراءهم وأفعالهم التي قاموا بها

بنظرة شاملة لجميع جوانب تخصصه ، وأمّا غير المتخصص ؛ وإن أدرك بعض المعاني والجوانب ؛ لكنّها في الغالب تكون قاصرة ، ولذلك فمهما حاول الداعية غير المتخصص ، والذي لايسير على أصول ثابتة ؛ مهما حاول تأصيل الدعوة وفقهها فلن ينجح في ذلك .

(ب) فوائد التأصيل في الدعوة إلى الله تعالى :

١- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى ؛ يحقق العبودية لله تعالى لأنّ الداعية يقوم بواجب شرعي مفروضا عليه ، فلابد أن يحقق هذا الواجب بما شُرِع من خلال التوجيهات الربانية والسنن النبوية ؛ والأصول الشرعيّة المعتبرة ؛ حتى تكون دعوته وفق منهج الله ، وكما يحبها الله ويرضاها ، لا برغباته وهواه ، فلا يعبدَ الله إلا بما شرع[1] ، ولذلك فلا ينبغي أن يُقدم المسلم على شيء إلا بعد أن يعرف الأصل فيه ، والدليل الذي يبنى عليه ، يقول الإمام سفيانُ الثوريُّ رحمه الله تعالى : (إن استطعتَ أنْ لا تحك رأسكَ إلا بأثرٍ فافعل)[2] ، فكيف بأمر الدعوة إلى الله ؛ وهي بالمكانة التي لا تخفى .

فالنصوص الشرعيّة هي الأصل في إدراك كيفية عبادة الله ، والدعوة إليه ، كما أنّها تحفظ الداعية من الابتداع والانحراف عن الشرع والدين ، والدعوة ؛ إمّا أمرٌ بمعروف ، وإما نهيٌ عن منكر ، والدليل لمعرفة المعروف من المنكر والتمييز بينهما ؛ هو الكتاب والسنة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنّ : (الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله ، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه

(١) فالدعوة إلى الله عبادة كسائر العبادات ، والعبادة لابد لها من شرطين هما : الإخلاص والمتابعة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وجماع الدين أصلان : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ... وذلك تحقيقا للشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله ؛ ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه ، وفي الثانية أن محمدا هو رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره) انظر كتابه : مجموع الفتاوى (١٠/٢٣٤)

(٢) انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي (١/١٤٢)

ورسوله ، ويُؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ، وينهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ، وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويُؤمر ويُنهى ، إما بما يضادّ ذلك ، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله ، وإذا اتخذ ذلك ديناً : كان مبتدعا ضالا باطلا)[٣] .

٢- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى ؛ يجعل الداعية مطمئنا لما يفعل مقتنعا به ، بل يؤجر على كل حركاته وسكناته وتصرفاته وانفعالاته المقصودة وغير المقصودة ؛ وذلك لأنّ دافعه لهذا الفعل أو ذاك ، وهذا التصرف أو غيره ؛ هو النص الشرعيّ ، فتتحول جميع جهوده الدعوية إلى عبادات شرعيّة ؛ لدلالة النص صراحة أو ضمنا عليها ، فمثلا : الابتسامة والبشاشة وطلاقة الوجه طريق لكسب القلوب وجذب المدعوين ؛ وهي أيضا ؛ عبادةٌ وقربةٌ إلى الله تعالى ، فتبسمك في وجه أخيك صدقة ، فعن أبي ذر الغفاري ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: ((لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق))[١] .

٣- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله ؛ يقرب الدعاة والدعوات ، ويجمعهم ويقلل الخلاف بينهم ويخفف التباين في وجهات النظر ، لأنّ وحدة الأصول والمراجع والمنطلقات يجعل وجهات النظر والآراء متقاربة ، وإن اختلفت فهناك قواسم مشتركة ؛ تخفف من وطأة الخلاف والتباعد الذي قد يحصل ؛ ولذلك كان الخلاف بين الصحابة قليلٌ ومحدود ، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (اختلاف الصحابة لم يضر؛ لأن الأصل الذي بنوا عليه واحد ، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والقصد واحد ، وهو طاعة الله ورسوله ، والطريق واحد ، وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل رأي وقياس وذوق وسياسة)[٢]

---

(٣) انظر مجموع الفتاوى ، لابن تيمية (١٦٩/٢٨)

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء ، برقم (٢٦٢٦)

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، لابن القيم (٥١٩/٢) ، ط٣ ، دار العاصمة الرياض ١٤١٨هـ

٤- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى ؛ يجعل الداعية شخصية اعتبارية متماسكة وصاحب سلوكيات ومواقف غير متذبذبة وغير متناقضة بالجملة ، لأنّ الانطلاق من أصول شرعية واحدة ، ومنطلقات مشتركة ومعتبرة ؛ تكون صمّام أمان لمن يعتمد عليها وينطلق منها ويعود إليها ، كلما احتاج إلى ذلك ، بل ويفتح عليه من الآفاق ويجعله مبحرا في فقه واسع من المعاني والكنوز التي لا تنضب بإذن الله لأنّها من وحي الله تعالى .

المطلب الثاني: أهمية معرفة أدلةومصادر الدعوة وحاجةالدعوةوالداعية إليه:

(أ) المقصود بهذه الأدلة والمصادر ومراتبها :

المقصود هنا في هذه الدراسة بيان الحاجة الماس إلى معرفة أدلة الدعوة ومصادرها ، والتأكيد على مصادر التلقي والتأصيل والتوجيه والانطلاق لكل داعية ، حتى تبقى القاعدة الصلبة معروفة ، وحتي لايحصل الحيد عنها ، وخاصة في ظل كثرة مصادر المعرفة ، وأوعية المعلومات ، وقنوات التأثير ، فالحاجة في ظلّ هذا المتغير ماسة للدعاة إلى الله ، في التأكيد على أسس الدين والدعوة وأصولهما ، وأدلة المعتبرة ، والمصادر الموثوقة ، للإعتماد عليها ، والنهل منها ، والاستدلال بها ، والمحافظة على الأصول والثوابت التي يستدل بها للدعوة ، لتضمن استمرارها ونجاحها ، مع تغير الأحوال والأزمان والظروف والطوارئ ، مصداق لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] وهذه الأدلة والمصادر المتينة والمكينة للدعوة إلى الله ومنهجها ومضامينها ، هي التي تعطي المشروعية ، والمصداقية ، والثبات والبقاء رغم كلّ العوائق والمنعطفات

وقد اختلفت آراء وأقوال المؤلفين في الدعوة وعلومها بخصوص موضوع أدلة الدعوة وأصولها ومصادرها [١] ، فمنهم من توسعّ في ذلك وأشار إلى عموم أدلة الشريعة ومصادرها ومايتفرع عنها ، ومنهم من اختصر وخصّ بالذكر الأدلة والمصادر المباشرة ، ومنهم من توسّع وذكر عموم الأدلة الشرعية الأصلية والفرعية ، وأدخل عموم السير والتجارب للأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الموثوقين ، والأعلام المجددون ، ومنهم من تجاوز كلّ ذلك وتوسعّ في

(١) انظر مثالاً على ذلك: الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي ص٨٤ ، البيانوني ، والمغذوي

مصادر الدعوة والتلقي إلى ما لايقبل وما لايعتدّ به ، وسنقتصر في هذه الدراسة على المصدر الأول (القرآن الكريم)

(ب) أهمية معرفة تلك الأدلة والمصادر وفائدتها وحاجة الدعوة والداعية إلى الرجوع إليها والاعتماد عليها ، وخاصة في هذه الأزمان وهذه المتغيرات :

فالداعية يتلقى مضامين دعوته وفقهها من المنابع الأصيلة ؛ الكتاب والسنة ، ومايتفرع عنهما من أدلة أصلية وفرعية ، وفق فهم السلف الصالح ؛ وهم الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان ، وعدم التزام ذلك يعني أنّه سيخبط خبط عشواء ويتلقّى العلم من جهات لا يعلم أصولها الشرعية ، ولا أدلتها المرعية ؛ ولا رجالاتها الثقات ، فيقع في المحذور ، وينحرف عن السبيل ، لأنّ المصادر مغشوشة ، والأدلة مشبوهة ، ومن يتلقون عنهم نكرات ، لذلك قال عبد اله بن مسعود رضي اللّٰه عنه : (لا يزال النّاس بخير ما أخذوا العلم عن الأكابر ، وعن أمنائهم وعلمائهم ؛ فإذا أخذوا من صغارهم وشرارهم هلكوا)[١] ، وهذا الإمام عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله يقول[٢] : أيها الطالب علماً ائت حمّاد بن زيد

فاكتسب علماً وحلماً ثمَّ قيّده بقيد

ودع الفتنة من آثار عمرو بن عبيد

فوجود الأدلة والأصول الواضحة حماية للدعوة من الانجراف والانحراف عن المقصود والمنهج الصحيح ، وفي المقابل عندما لا تكون الأصول واضحة والأدلة موثوقة والاستدلال من أهله ، وفي محله ، فإنّ بوادر الخلل والتحلحل ستعصف بالدعوة والداعية ، وخاصة في هذه الأزمان التي تنوعت فيها مصادر التلقي والمعرفة وتنوعت ، وأصبحنا نعيش في زمن الانفتاح ، وعدم القدرة على إيقاف المعلومات وسيل المعارف

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد:صـ٨١٥ ، و عبدالرزاق في المصنَّف(٢٠٤٤٦و٢٠٤٨٣،بسند صحيح).

(١) (ديوان ابن المبارك للدكتور:مجاهد مصطفى:صـ٤٥، وانظر البداية والنهاية: ٧٩/١٠).

عند حدّه ، بل أصبحت المعارف والثقافات تفرض نفسها على المجتمعات ، وقد يعيش الداعية في بيئة أساساتها منحرفة وأصولها غير متينة ، وأدلة منهجها غير معتمدة ، يقول الإمام الغزالي رحمه الله في هذا السياق مؤكدا على أهمية التحصن والتحصين بالأدلة والمصادر والمرجعيات الموثوقة ضد كل الانحرافات الفكرية ، والمتغيرات العصريّة التي قد يبتلى بها في بيئته فقال : (فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق ؛ فإنه لو أُلقي إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا) إحياء علوم الدين للغزالي:(١/٢٩)

ويقول الدكتور عدنان عرعور حفظه الله بأن التقصير في أصول الدعوة ومصادرها وأدلتها هو (فقدان لمعلم التأصيل في الدعوة إلى الله الذي جرّ على بعض المسلمين اضطراباً في التفكير، وانحرافاً في المنهج، وخللاً في الدعوة، فجعلهم يتعلقون بالعاطفة والتزيين ، لا بالبرهان والدليل ، وفهم للتمحور حول الفروع(١) لا الأصول، والانطلاق من العاطفة والحماسة. لا من الثوابت وبُعد النظر، والتعلق بالحزبية والرجال، لا بالحق والإسلام ... وإن غياب هذا المَعْلَم، يربك الداعية في المواقف الحرجةِ، ويجعله مضطرباً، لا يحسن تصرفاً ولا يجيد رأياً، ويجعلهُ لا يثبت في محنة؛ كريشة في مهب الريح، كحال البيت إذا هبت عليه عاصفة وقد بني بلا أسس ... وإن إعادة تربية الناشئة على التأصيل، وبخاصةٍ في مقام الدعوة، يقي كثيرًا من الانحرافات والانتكاسات، ويضمنُ كثيرًا من السدادِ والتوفيق) .

والدعوة إلى الله تعالى ، ورسالة الإسلام ، لا يتصور أن تقوم إلى على أصل ثابت وركن شديد وهو الوحي ومصدريه الكتاب والسنة ومايتفرع منهما ، والداعية

---

١ ولا يعني هذا؛ التقليل من شأن الفروع فالكل من الدين، والكل مهم، وقد أمرنا الله بالدخول في الدين كافة، فقال: ﴿ يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السّلْمِ كَآفّةً.. ﴾ الآية. [البقرة:٢٠٨]، ولكن المقصود ما يفعله بعض الدعاة من التركيز على بعض الفروع، كأنه الدين كله أو أصل من أصوله.. غافلاً عن الأولويات، ومتجافياً عن المهمات.

الذي يربط مدعويه بنصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة ، وأقوال الأئمة الهداة ، ويزرع في أتباعه مكانة الأدلة الشرعية ، والمصادر المعتمدة ، التي تنطلق من مصدري التلقي والمعرفة الرئيسين الكتاب والسنة

وقد أكّد الأمام ابن القيم رحمه الله أهمية العلاقة بالنصوص والاستدلال بها والاعتماد عليها ، وضرورة ذلك لأصحاب الرسالة والدعوة والتوجيه والإصلاح والافتاء ، وخطورة البعد عن ذلك أو التقصير فيه ، فقال في كلام نفيس أذكره بطوله لكونه في صميم ماقصدت الدراسة إليه ، وماكان البحث من أجله : (الفائدة التاسعة: ينبغي للمفتي ان يفتي بلفظ النص مهما أمكنه فإنه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام فهو حكم مضمون له الصواب متضمن للدليل عليه في أحسن بيان وقول الفقيه المعين ليس كذلك وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري حتى خلفت من بعدهم خلوف رغبوا عن النصوص واشتقوا لهم ألفاظا غير الفاظ النصوص ... فتولد من هجران الفاظ النصوص والاقبال على الالفاظ الحادثة وتعليق الاحكام بها على الأمة من الفساد مالا يعلمه إلا الله فألفاظ النصوص عصمة وحجة بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب ولما كانت هي عصمة عهدة الصحابة وأصولهم التي اليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم ثم التابعون بالنسبة إلى من بعدهم كذلك وهلم جرا ، وقد كان أصحاب رسول الله إذا سئلوا عن مسألة يقولون قال الله كذا قال رسول الله كذا أو فعل رسول الله كذا ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلا قط فمن تامل أجوبتهم وجدها شفاء لما في الصدور ، فلما طال العهد وبعد الناس من نور النبوة صار هذا عيبا عند المتأخرين ان يذكروا في أصول دينهم وفروعه قال الله وقال رسول الله أما أصول دينهم فصرحوا في كتبهم ان قول الله ورسوله لا يفيد اليقين في مسائل أصول الدين وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة واما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله ولا عن الامام الذي زعموا أنهم قلدوه دينهم بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به

وينقلون بـه الحقـوق ويبيحـون بـه الفـروج والـدماء والأمـوال علـى قـول ذلـك المصـنف واجلهم عند نفسه وزعيمهم عند بني جنسه من يستحضر لفظ الكتاب ويقول هكذا قال وهذا لفظه فالحلال ما احله ذلك الكتاب والحرام ما حرمه والواجب ما أوجبه والباطل ما أبطله والصحيح ما صححه هذا وانى لنا بهؤلاء في مثل هذه الازمان فقد دفعنا إلى أمر تضج منه الحقوق إلى الله ضجيجا وتعج الفروج والأموال والدماء إلى ربها عجيجا تبدل فيه الاحكام ويقلب فيه الحلال بالحرام ويجعل المعروف فيه اعلى مراتب المنكرات والذي لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات الحق فيه غريب وأغرب منه من يعرفه وأغرب منهما من يدعو إليه وينصح به نفسه والناس قد فلق بهم فالق الاصباح صبحه عن غياهب الظلمات وابان طريقة المستقيم من بين تلك الطرق الجائرات واراه بعين قلبه ما كان عليه رسول الله وأصحابه مع ما عليه أكثر الخلق من البدع المضلات رفع له علم الهداية فشمر إليه ووضح له الصراط المستقيم فقام واستقام عليه وطوبي له من وحيد على كثرة السكان غريب على كثرة الجيران بين اقوام رؤيتهم قذى العيون وشجى الحلوق وكرب النفوس وحمى الارواح وغم الصدور ومرض القلوب وإن انصفتهم لم تقبل طبيعتهم الانصاف وان طلبته منهم فأين الثريا من يد الملتمس قد انتكست قلوبهم وعمى عليهم مطلوبهم رضوا بالاماني وابتلوا بالحظوظ وحصلوا على الحرمان وخاضوا بحار العلم لكن بالدعاوي الباطلة وشقاشق الهذيان ولا والله ما ابتلت من وشله اقدامهم ولا زكت به عقولهم واحلامهم ولا ابيضت به لياليهم واشرقت بنوره أيامهم ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذ بلت بمداده أقلامهم أنفقوا في غير شئ نفائس الانفاس واتعبوا انفسهم وحيروا من خلفهم من الناس ، ضيعوا الأصول فحرموا الوصول وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا في مهامة الحيرة وبيداء الضلالة ، والمقصود أن العصمة مضمونه في الفاظ النصوص ومعانيها في أتم بيان واحسن تفسير ومن رام إدراك الهدى ودين الحق من غير مشكاتها فهو عليه عسير غير يسير) . (إعلام الموقعين لابن القيم) .

المبحث الثاني : القرآن الكريم وأهميته في تأصيل الدعوة إلى اللّه :

المطلب الأول : تعريف القرآن ومكانته وكونه الأصل الأول للدعوة إلى الله :

أولا / تعريف القرآن الكريم في اللغة : مصدر قرأ قراءةً وقرآناً على وزن (فُعلان) بالضمّ كالغُفران والشُّكران ، وسمي به الكتاب المقروء ، وقرأ : تأتي بمعنى الجمع والضم ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل[١] وقيل أنّه غير مشتقّ[٢] ؛ لأنه علم على كلام الله وكتابه ، فهو اسم خاص به ، مثل التوراة والإنجيل ، قال في المفردات[٣] (سمي قرآنا: لكونه جمع ثمرات الكتب السابقة ،وقيل:لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان)[٤]

وفي الاصطلاح : تفاوتت العبارات والتعاريف المتعلقة بالقرآن الكريم مختصرة ومطوّلة ، فمن ذلك أنّه : (الكلام المنزّل على الرّسول ، المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً)[٥] ، وقيل هو: (كلام الله المنزّل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام ، المكتوب في المصاحف ، والمحفوظ في الصّدور ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبّد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختتم بسورة الناس)[٦] .

والقرآن الكريم يتعذّر تحديده بالتعاريف المنطقيّة ؛ بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا ، والحدّ الحقيقي له ؛ هو استحضاره معهودا في الذهن ، أو مشاهدا في الحسّ ؛ كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروءاً باللّسان ، فتقول هو ما بين هاتين الدّفتين

---

(١) انظر لسان العرب ، ابن منظور مادة (قرأ) (٤٢/٣) ، والمعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (٧٢٢/١)

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٦٧/١) ، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١٤/١)

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص (٢) ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت

(٤) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي (٢٧٧/١) ، دار المعرفة ، بيروت

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول،للشوكاني (٨٥/١) ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت

(٦) التّعبير الفني في القرآن ، د. بكري شيخ أمين ص (١١) ، ط٣ ، دار الشرق ، بيروت ، ١٣٩٩هـ

، أو تقول هو: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله ربّ العالمين﴾ إلى قوله : ﴿من الجنّة والناس﴾ (٧) .

ثانياً : أهميّة القرآن وكونه الأصل الأول من أصول الدعوة إلى الله :

للقرآن الكريم الأهمية البالغة ، والمكانة الكبيرة ؛ وذلك لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة ؛ قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾(١) والأمر جاء صريحا بضرورة التمسك به ، وتحكيمه في سائر شؤون الحياة ؛ لأنّه مصدر العلم وعليه العمل ، وهو الأصل الأول من أصول الدعوة مصادرها ، التي تنطلق منه ، وتدور عليه ، وترجع إليه والذي بيّن كل شيء ، ولم يترك شاردة ولاواردة ؛ إلا ودلّ عليها صراحة أو ضمنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) .

فالقرآن كلام الله تعالى ، وصراطه المستقيم ، ودستوره القويم ، ورسالته الخالدة ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به هدي إلى صراط مستقيم ، فالواجب على الدّاعية إلى الله العناية به : قراءة وحفظاً وعلماً وتدبراً ، والوقوف عند أوامره ونواهيه ، والتزام توجيهاته ومنهجه في جميع الشؤون والأحوال ؛ فهو كتاب

---

(٧) انظر مباحث في علوم القرآن ، لمنّاع القطّان ص (٢٠) ، مكتبة المعارف ، الرّياض ١٤٠١هـ ، وأصل هذا المعنى ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: النبأ العظيم ص (١٤) ، مطبعة السعادة ، ط١٣٨٩هـ،١٩٦٩م والحقيقة أنّ كلامهما في محلّه إذ كيف نستطيع تحديد المعرّف ، الذي يعجز الإنسان الضعيف عن إدراك تمام معناه المعجز .

(١) سورة الأنعام الآية (٣٨)

(٢) سورة النّحل الآية (٨٩)

الدّعوة الأوّل ودستورها الأساسيّ ، وجميع مصادر الدّعوة الأخرىٰ ترجع إليه ، والآيات القرآنية مليئة بالمبادئ والمناهج والتوجيهات والأساليب الدعوية ، بل في القرآن الكريم من الفقه الدعوي الشيء الكثير الذي لا يكاد يُحصر ، فهو كتاب هداية وإرشاد ، يهدي للتي هي أقوم ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٣) ، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية : (يمدح تعالىٰ كتابه العزيز الذي أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ وهو القرآن ، بأنه يهدي لأقوم الطّرق وأوضح السّبل)(٤) ، والقرآن الكريم له الأولوية المطلقة في كل شيء فهو الأولىٰ في المكانة والأولىٰ في الأهمية والأولىٰ في الاعتبار ، ولذلك كان هو الأولىٰ والأحق بالرعاية والتقديم علىٰ غيره وتقديم كل مايعتني به القرآن ، وكل مايهتم به ، وكلّ مايكثر وروده وتكراره فيه ، مثل أصول الإيمان وأركانه الستة ، ومثل أصول العبادات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والصيام وغير ذلك ، ومثل أصول الفضائل ومكارم الأخلاق ونحو ذلك .

والمقصود : أنّ القرآن الكريم هو أصل الأصول التي يقوم عليها الدين وتنطلق منها الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وما من أمر من أمور الدعوة إلىٰ الله وقضاياها وفقهها ، إلا وهو مُنْبَثِقٌ منه ، ولذلك فأهل الدعوة إلىٰ الله يجعلون (الكتاب والسنة إمامهم ، وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم ؛ عرضوه علىٰ الكتاب والسنة ، فإن وجدوه موافقًا لهما قبلوه ، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ، ووفقهم له ، وإن وجدوه مخالفًا لهما تركوا ما وقع لهم ، وأقبلوا علىٰ الكتاب والسنة ، ورجعوا بالتهمة علىٰ أنفسهم ، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلىٰ الحق ، ورأي الإنسان قد يكون

---

(٣) سورة الإسراء الآية (٩)

(٤) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٥/٤٨) .

حقًا وقد يكون باطلاً)[١]

ولقد جاءت الآيات القرآنية التي تهتم بالدعوة إلى الله تعالى وتوجه لها كثيرة ومتنوعة ، بل وفيها من الفقه والمعالم والدلالات مايحتاج إلى تأمل وتدبر ؛ لأنّ كلام الله تعالى لا تنقضي عجائبه ، وتتجدد معانيه ، فكانت إعادة النظر وكثرة البحث فيه مرة بعد مرة من ما يجعل الداعية يقف على كنوز ومعان متجددة وفقه نفيس ، ومن تأمل الآيات التالية وجد فيها من المعاني والدلالات والفقه مايحتاج إلى ودراسات كقوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٣] وقوله :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤] .

(١) مختصر الصّواعق المرسلة ، لابن قيّم الجوزيّة ص (٤٩٦) اختصار محمد الموصلي ، مكتبة الرّياض الحديثة ، الرياض

(٢) سورة النحل الآية (١٢٥)

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٨)

(٤) سورة فصلت الآية (٣٣)

المطلب الثاني : أهمية التأصيل من القرآن الكريم وضرورته :

وتتضح أهمية التأصيل وتظهر من عدة جوانب فهو من (جهة الحفظ) كتاب محفوظ تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن (جهة البلاغ المبين) كتاب إعجاز وبيان في الدلالة والتوضيح وإرادة المعاني ، وهو من (جهة الشمول) صالح لكل زمان ومكان ولكل إنسان ، ويجمع خيري الدنيا والآخرة وتفصيل ذلك كما يلي :

(أ) لأن القرآن هو لأصل الذي تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

فالقرآن الكريم مصدر الدعوة الأول تكفل الله بحفظه وسلامته من التحريف ، لأنه الكتاب المهيمن للرسالة الخاتمة ، والدعوة الباقية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1] وهو آخر كتب الله تعالى نزولا ، وناسخ لكلّ ماقبله من الشرائع والكتب ومهيمنا عليها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2] ، فهو ليس كغيره من الكتب السماوية ، بل ضمن الله حفظه من عبث العابثين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، فعن عبد الله بن عباس ﷺ قال : (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرؤونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم

(١) سورة الحجر الآية (٩)

(٢) سورة المائدة الآية (٤٠)

أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم)[٣]

ومما يدل وبوضوح على حفظ الله تعالى لهذا القرآن وأنّه تنزيل من حكيم حميد ؛ أنه نزل منجما في أكثر من عشرين عاما ، ومع ذلك لم يختلف ، ولم يتناقض أو يتعارض ؛ بل هو محكم مترابط على نسق واحد في الآيات والسور ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر وقيل في مناسبات متعددة ، وعلى مدار هذه المدة الطويلة ، لوقع فيه التفكك ، والاضطراب والاختلاف والتعارض ، وعدم التوافق والانسجام ؛ ماظهر ؛ ولكنه كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[١] .

كما أنّ الله تعالى هيأ ويسّر من الأسباب التي تعين على حفظه في كل زمان ؛ وبقائه وعدم تحريفه لا بزيادة ولا نقصان ، ففي عهد النبوة ؛ كان وجود الحافظ الأمين ﷺ وحثّه أصحابه رضي الله عنهم على حفظه ، ومدارسته الدوريّة مع حامل الوحي وأمينه جبريل عليه السلام ، وقد تدارسه في آخر عام مرتين[٢] ، ولقد نهى ﷺ عن كتابة

(٣) وقد علّق الإمام بدر الدين العيني رحمه الله على قول أثر ابن عباس ﷺ بقوله: (وفيه أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا كما أخبر الله تعالى عنهم في القرآن الكريم ، وسأل محمد بن الوضاح بعض علماء النصارى ، فقال ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان ، وكتابنا بخلاف ذلك ؟ فقال : لأن الله تعالى وكل حفظ كتابكم إليكم ، فقال: استحفظوا من كتاب الله فلما وكله إلى مخلوق دخله الخرم والنقصان ، وقال في كتابنا: [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] فتولى الله حفظه فلا سبيل إلى الزيادة فيه ولا النقصان منه) انظر عمدة القاري ، للعيني (٣٧٩/٢٠)

(١) سورة النساء الآية (٨٢)

(٢) فلقد روت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مرض وفاة النبي ﷺ قالت: (فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي ، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحّب وقال : مرحبا بابنتي ثم أجلسها عن يمينه ، أو عن شماله ، ثم سارها فبكت بكاء شديدا فلما رأى حزنها ؛ سارها الثانية فإذا هي تضحك فقلت لها أنا من بين نسائه خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا ثم أنت تبكين فلما قام رسول الله ﷺ

السنة مراعاة لمقام القرآن وتأكيدا للعناية به والتركيز عليه حتى لا تختلط به ، وفي عهد الصحابة رضي الله عنهم تعاهدوا القرآن الكريم بالحفظ والعناية ؛ سواء الخلفاء الراشدون ، أو من تبعهم بإحسان من بقية الصحابة والقرابة أجمعين ، واستمر هذا الحفظ له ، وهو باق إلى قيام الساعة وقد شهد له بالتمام والحفظ وعدم التحريف الأعداء قبل الأصدقاء .

(ب) لأن القرآن هو الأصل الشامل الصالح لكل زمان ومكان وإنسان :

فالقرآن هو الأصل الشامل الكامل الصالح لكل زمان ومكان ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] ، والقرآن الكريم نزل مشتملا على كل شيء ، يقول أبوبكر الجصاص رحمه الله ، مبينا معنى هذه الآية : (يعني به والله أعلم تبيان كل شيء من أمور الدين بالنص والدلالة ، فما من حادثة جليلة ولا دقيقة إلا ولله فيها حكم قد بيّنه في الكتاب نصا أو دليلا ، وما بيّنه النبي ﷺ فإنما صدر عن الكتاب وهو من عند الله عزّ

سألتها عمّ سارك ؟ قالت ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه ، فلما توفي قلت لها عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني قالت أما الآن فنعم فأخبرتني قالت أما حين سارني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري فإني نعم السلف أنا لك ، قالت فبكيت بكائي الذي رأيت فلما رأى جزعي سارّني الثانية ؛ قال يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة) أخرجه البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب من ناجى بين يدي الناس ... برقم (٥٩٢٨)

(١) سورة النحل الآية (٨٩)

وجل ... وما حصل عليه الإجماع فمصدره أيضا عن الكتاب ، لأنّ الكتاب قد دلّ على صحة الإجماع وأنهم لا يجتمعون على ضلال ، وما أوجبه القياس واجتهاد الرأي وسائر ضروب الاستدلال من الاستحسان وقبول خبر الواحد ، وجميع ذلك من تبيان الكتاب ؛ لأنّه قد دلّ على ذلك أجمع ، فما من حكم من أحكام الدين إلا وفي الكتاب تبيانه من الوجوه التي ذكرنا)[٢] وهو كتاب شامل ، لم يفرط في شيء ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فيه بيان كل شيء ؛ والعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة لا يعوزه منها شيء[٣] ، كما قال الله تعالى عنه : ﴿ .. مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ.. ﴾[٤] .

وبناء على هذا الشمول في أصل الدين وهو القرآن الكريم ؛ جاءت شريعة الإسلام شاملة كاملة ، وجاءت الدعوة إليه من طبيعتها وخصوصيتها ؛ الشمول والكمال ؛ لأنّ النبي ﷺ قد بلّغ الرسالة ، وكمّل الدين ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ... ﴾[٥] ، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى : (ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه ، فكل متكلف يزعم ؛ أنه لابد للناس من معرفة أحكامهم إلى علوم أخرى غير الكتاب والسنة من علم

---

(٢) انظر أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص (٣/٢٤٦) ، طبعة دار الكتب العلمية ، لبنان ط١ ، ١٤١٥هـ

(٣) انظر الموافقات ، للإمام الشاطبي (١٨٤/٤)

(٤) سورة الأنعام الآية (٣٨)

(٥) سورة المائدة الآية (٣)

الكلام وغيره ؛ فهو جاهل مبطل في دعواه ، قد زعم أنّ الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه ، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله)[١] .

وهذا الكمال والشمول في الدعوة إلى الله تعالى ؛ شامل لميادين متعددة من أبرزها : شمولية المكان والزمان والإنسان فـ (شمولية المكان) في دعوة النبي ﷺ كونها ليست كالدعوات السماوية السابقة التي جاءت محدودة بمكان أو بلد معين ، بل هي شاملة لكل الأمكنة ، فلم تترك بيت مدر ولا بر إلا ودخلته ، وفي صحيح مسلم أنّ النبي ﷺ قال: ((إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها))[٢] وأما (شمولية الإنسان) فهي دعوة جاءت للناس كافة وليست مقصورة على قوم معينين بل تعدّت من الإنس إلى الجن: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣] و (شمولية الزمان) تبيّن أنّها دعوة شاملة لجميع الزمان من بعثته ﷺ إلى قيام الساعة ، وليست موقوتةً بعصر معين ، أو زمن مخصوص ؛ بل على مرّ الزمن ، حتى تقوم الساعة .

(ج) لأن القرآن هو كتاب البلاغ المبين المعجز الواضح في بيانه ودلالته ومعانيه :

فهو كلام الله تعالى المعجز الذي جاء لأمة الفصاحة والبيان ، فالبلاغ الواضح والقولِ المبين له في الإسلام ، مكانةً رفيعةً ، وخصائص فريدةً قال ﷺ : ((إن من البيان

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن السعدي ص (٢٢٠) ، باعتناء د.عبد الرحمن معلا اللويحق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٣هـ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة برقم (٥١٤٤)

(٣) سورة الذاريات الآية (٥٦)

لسحرا))[٤] ؛ ولذلك دعا إليه القرآن الكريم ، وكان من الواجب على الرسول ﷺ أن يكون بلاغه للدعوة مبينا على منهج القرآن المبين:﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٥]

وهذا التفوق اللغوي والبلاغي في البيان واقتفاء نهج الفصاحة ؛ له شأنه في القيادة والتأثير والنجاح ؛ وهو وجه من الوجوه الدالة على أهمية التأصيل من خلال هذا المصدر الذي هو أصل البلاغة والفصاحة والبيان ، لأنّ لهذا البلاغ المبين والمعجز وقعاً في النفوس ، وأثراً عميقاً يقود ويؤثر في إقناع المدعوين، وفي التأكيد على علاقة القرآن بالبلاغة والإعجاز ؛ دعوة مهمة إلى تأهيل الدعاة إلى الله تعالى وإعدادهم وتقويم ألسنتهم وتحسين منطقهم ليقوموا بواجبهم ، وليعبروا عن رسالتهم بكل قوة ووضوح خاصة في هذه الأزمان[١] ، التي أصبح للبيان والمنطق صولاته وجولاته في التأثير ، يقول الدكتور عبد الكريم بكّار : (لاينبغي الاستهانة بالأسلوب والقالب الذي نوصل به المضمون ، فكم من سلعة نفيسة أعرض عنها الناس لسوء تغليفها ، أو سوء عرضها ، وكم من عالم متبحر لا يلفت الأنظار إليه ؛ لأنه لايحسن شيئا من فن الخطاب المؤثر ،

(٤) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، كتاب النكاح في باب : الخطبة برقم (٥١٤٦) ، (١٦٧/٦)

(٥) سورة التغابن الآية (١٢)

(١) حيث ظهر فيها من يسمون بالدعاة الجدد ، الذين تولوا زمام المبادرة ، وملؤا وسائل الإعلام ومنابر التوجيه بأحاديثهم ؛ فسيطروا على الجماهير ونالوا الإعجاب والمكانة بلسانهم وقدراتهم البيانية والمنطقية رغم بضاعة بعضهم المزجاة وانحراف البعض الآخر ، فكان من الواجب تأهيل الداعية البياني والدعوة لتوثيق علاقته بالقرآن .

وكثيرا مايكون الفارق بين متحدث ناجح ، وآخر مخفق ؛ هو الاهتمام والحرص على تجويد الخطاب وإتقانه)[٢] .

(د) لأنّ القرآن هو الكتاب المهيمن على الكتب السماوية السابقة :

القرآن الكريم هو الكتاب المحفوظ الكامل الشامل ، كتاب الرسالة الخاتمة ، ولذلك كان (مهيمنا)[٣] ؛ على جميع ماسبقه من الكتب السماوية كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٤] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : (جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، ولهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها)[١] ، وفصّل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ؛ في معنى هذه الهيمنة على الكتب السماوية فقال: (هكذا القرآن فإنه قرّر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بيانا وتفصيلا ، وبيّن الأدلة

---

(٢) عصرنا والعيش في زمانه الصعب ، د. عبد الكريم بكار ص (٢٩٩) ، ط٣ ، دار القلم ، بيروت ١٤٢٥هـ

(٣) والمهيمن بمعنى: (المؤمن) إلا أن الهاء بدل من الهمزة ، كما قالوا : أرقت الماء وهرقت ، وإيّاك وهِيّاك ، ومعنى أنّ القرآن مهيمن على الكتب السماوية ؛ تحتمل معانٍ متعددة كما ذكرها أهل العلم منها ما يلي : ١-أنّ القرآن مؤتمن عليها ، ٢-أنّ القرآن شاهد عليها ، ٣-أنّ القرآن مصدِّق لما فيها ، ٤-أنّ القرآن رقيب عليها انظر زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي (٢/٢١٩) ، ط٤ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٧ هـ

(٤) سورة المائدة الآية (٤٨)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٣/١٢٨)

والبراهين علىٰ ذلك وقرّر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين وقرّر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبيّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها وبين ما حرف منها وبدل ، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة وبيّن أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة علىٰ ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد فى الخبريات حاكم فى الأمريات)(٢) .

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات :

وفي الختام أحمد الله تعالىٰ علىٰ التمام وأسأله حسن الختام ، وأن يجمعني في الجنّة مع محمد عليه الصلاة والسلام ، وأخيراً فإني أحمد الله عز وجل الذي منّ عليّ بإتمام هذه الورقات التي تدور نتيجتها الأولىٰ والأخيرة والمهمة علىٰ أنّ القرآن الكريم هو المصدر الأول والأصل الأصيل الذي تقوم عليه الدعوة وتنطلق منه وتعتمد عليه فهو كتاب هداية وإرشاد ، يهدي للتي هي أقوم ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

---

(٢) انظر مجموع الفتوىٰ ، لابن تيمية (٤٤/١٧)

يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ سورة الإسراء الآية (٩)

ومما يوصي به الباحث في هذا السياق :

١- يوصي الباحث نفسه وطلاب العلم وجميع المسلمين بتقوى الله عزو جل أولا ، ويدعوهم إلى التمسك بدين الله ، والقبض على دينهم وخاصة في هذه الأيام فإنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ومن اتقى الله ، والتزم بأوامره ونواهيه ؛ ففقهه الله في الدين ووفقه لكلّ خير ، وأصاب كلّ فصيلة ، وأعانه على فعل ما هو أولى ، فالعلم من الله جلّ وعلا : ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]

٢- يوصي الباحث نفسه وجميع الباحثين ، والدعاة العاملين ؛ بزيادة الاهتمام والعناية بهذين المصدرين الجليلين والوحيين المليئين ؛ (الكتاب والسنة) والردّ إليهما في كلّ صغيرة وكبيرة ، ليفتح الله تعالى على كلّ من يبحث ، ويوفق كلّ من يدعو ويعمل ﴿... وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ .. ﴾[2] فعلمهما لا يتناهى ولا تنقضي عجائبه ، ولا ينقص مع كثرت الأخذ ، وفيهما الكفاية ، وبالعيش معهما وخوض غمارهما ، يقف الداعية بإذن الله تعالى على ما يصلح له دنياه وآخرته ، وتفتح عليه كنوز العلم والمعرفة والفقه ؛ مما لا يعدّ ولا يحدّ ، بل هو فقه كامل ومتكامل في القرآن والسنة .

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٢)

(٢) سورة النساء الآية (٨٣)

٣- يوصي الباحث نفسه وإخوانه الباحثين ، والجامعات ، ومراكز البحث العلمي ، والمهتمين بالدراسة والتأصيل ، الاهتمام بـ بالفقه في الدين عموما ، والفقه في الدعوة على الخصوص لمن أراد أن يمارسها ، ويقتحم ميادينها ؛ لأنّه بهذا الفقه الدعوي من خلال النصوص الشرعية ، والتجارب الشخصيّة ، والسنن الكونيّة ، يحقق البصيرة في الدعوة المطلوبة شرعا ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٣]

ولا تحصل هذه البصيرة المأمور بها والتي هي علامة ودلالة الإتباع إلا بالعلم والفقه في الدين ، وبذلك تُثمر الدراسات الدعويّة نتائجها المرجوّة وتؤتي الجهود الدعوية أكلها المطلوب ، وقبل ذلك وبعده تُحمد الطريقة ، ويتمّ الاقتداء .

٤- يوصي الباحث نفسه وجميع العاملين في مجال الدعوة إلى الله تعالى ؛ الاهتمام بالعلم والشرعي والتفقه في دين الله تعالى ، فهو العاصم من الزلل والمعين على النجاح ، وهو الملاذ الآمن والطريق المضمون ، وبغير الفقه في الدين ، فلا معنى للدعوة ، بل إنّ الخوض في غمار الدعوة وميادينها ؛ بدون علم يترتب عليه من الآثار الوخيمة مالا تحمد عقباه ، وإنّ تقصير الداعية في العلم والتعلم نذير خطر يهدده ويهدد دعوته ، وذلك لأن : (العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح)[١] ،

---

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٨)

(١) مفتاح دار السعادة ، لابن القيم (١/١٣٠)

رابعا : فهرس المصادر والمراجع :

بعد القرآن الكريم ، مرتبة على حروف الهجاء ، على النحو التالـي :

١- الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ، ط٣ ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ١٤٠٥هـ
٢- أحكام القرآن : لأبي بكر الجصاص ، ط١ ، طبعة دار الكتب العلمية ، لبنان ١٤١٥هـ
٣- إرشاد الفحول : للشوكاني ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت بدون
٤- التعريفات : الشريف علي الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ١٤٠٣هـ
٥- تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن كثير ، ط٢ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ
٦٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : لعبد الرحمن السعدي ، باعتناء ؛ الدكتور عبد الرحمن معلا اللويحق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤٢٣هـ
٧- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع : للبغدادي ، طبعة المعارف ، الرياض ١٤٠٣هـ
٨- زاد المسير في علم التفسير : لابن الجوزي ، ط٤ ، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧ هـ
٩- شرح صحيح مسلم : للإمام النووي ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م
١٠- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : لابن القيم ، ط٣ ، دار العاصمة ١٤١٨هـ
١١- عصرنا والعيش في زمانه الصعب: لعبد الكريم بكار ، ط٣ ، دار القلم، بيروت ١٤٢٥هـ
١٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط١ ، دار الريان للتراث

١٣- لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور ، دار صادر ، بيروت بدون
١٤- مباحث في علوم القرآن : لمناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرّياض ١٤٠١هـ
١٥- مباحث في علوم القرآن الكريم: لصبحي الصالح، ط١٤،دار العلم للملايين،بيروت١٩٨٢م
١٦- مجموع الفتاوى : ابن تيمية ، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة مكتبة المعارف ، الرباط
١٧- محاسن التّأويل : لجمال الدين القاسمي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ
١٨- مختصر الصّواعق المرسلة ، لابن القيم ، مكتبة الرّياض الحديثة ، الرياض بدون
١٩- معالم الدعوة في قصص القرآن : لعبد الوهاب الديلمي، ط٢ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ١٤١٩هـ
٢٠- معجم مقاييس اللغة:لابن فارس،بتحقيق عبدالسلام هارون،دار الكتب العلمية،بيروت بدون
٢١- المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني ، تحقيق : محمد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت بدون
٢٢- مناهل العرفان في علوم القرآن : للزرقاني ، ط٣ ، دار إحياء الكتب العربية بدون
٢٣- الموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي ، تحقيق: عبد الله درّاز ، دار المعرفة ، بيروت بدون
٢٤- النبأ العظيم ، للشيخ محمد عبد الله دراز ، مطبعة السعادة ، ط١٣٨٩هـ ١٩٦٩م